# "سؤال المعنى"
# قراءة فلسفية أنثروبولوجيا


**محمد قصير**

أستاذ وباحث في العلوم الإنسانية



14/05/2024 | الفلسفة والعلوم الإنسانية | المملكة المغربية

**البشر هم الكائنات الوحيدة التي تعي أن وجودها محدودٌ ومنتهٍ، لهذا تساءلت عن المعنى. وهذا السؤال الذي انتقل من الفلسفة إلى الأنثروبولوجيا يمكن أن يفتح آفاقًا واسعة للمعرفة التي تفكر في فهم الإنسان المعاصر والكشف عن طبيعته وموقفه من العالم.**

يعتبر المعنى من المفاهيم والقضايا الفلسفية والأنثروبولوجيا باعتباره تشكيلا لفهم الوجود البشري والتفاعل الاجتماعي واللغوي. حيث يُنظر في الفلسفة إلى المعنى كقضية جوهرية تُبحث من خلال مختلف الفروع مثل فلسفة اللغة، الوجودية، وفلسفة العقل وعلى هذا الأساس كان الفلاسفة وما زالوا يسعون لفهم كيف ترتبط الكلمات والأفكار بالعالم وكيف تنشأ المعاني من خلال السياقات الاجتماعية واللغوية .

في فلسفة اللغة، يُعتبر المعنى جوهر اللغة والاتصال البشري. الفلاسفة مثل لودفيغ فيتغنشتاين[1] ناقشوا كيف أن المعاني ليست ثابتة بل تتغير بناءً على الاستخدام في سياقات مختلفة. ولعلّ هذا يفتح الباب لفهم أعمق لكيفية تفسير الناس للعالم من حولهم من خلال اللغة.

الوجودية، من جهة أخرى، تتناول المعنى من زاوية وجودية، حيث تركز على تساؤلات حول معنى الحياة والغاية من الوجود. فلاسفة مثل جان بول سارتر[2] وألبير كامو[3] أكدوا على أن الحياة ليس لها معنى جوهري، وأن الأفراد يجب أن يصنعوا معانيهم الخاصة من خلال تجاربهم وقراراتهم، وهذا يبرز أهمية الإرادة الحرة والمسؤولية الشخصية في تحديد معنى الحياة.

أما في الأنثروبولوجيا، فيُعتبر المعنى محورًا لفهم الثقافات والمجتمعات، ولعلّ الأنثروبولوجيا الثقافية على وجه الخصوص، تستكشف كيف يخلق البشر معاني من خلال الرموز والعادات والتقاليد. علماء الأنثروبولوجيا مثل كليفورد غيرتز[4] أكدوا على أن الثقافة هي نظام من المعاني التي تتجلى من خلال الرموز والتي يستخدمها الناس من أجل التواصل وفهم العالم .

---

[1] لودفيغ فتغنشتاين، فيلسوفًا نمساويًا بريطانيًا عمل أساسًا في المنطق وفلسفة الرياضيات وفلسفة العقل وفلسفة اللغة. يعتبر واحدًا من أعظم الفلاسفة في العصر الحديث.

[2] جان-بول شارل ايمارد سارتر، فيلسوف وروائي وكاتب مسرحي كاتب سيناريو وناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي.

[3] ألبير كامو، فيلسوف عبثي وكاتب مسرحي وروائي فرنسي.

[4] كليفورد غيرتز (23 أغسطس 1926 - 30 أكتوبر 2006)، هو واحد من أبرز علماء الأنثروبولوجيا الأميركيين وأكثرهم تأثيراً خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين.

الأنثروبولوجيا اللغوية تعنى بدراسة كيفية تأثير اللغة على الفكر والثقافة وكيف تعكس اللغة معاني وقيم المجتمعات المختلفة. من خلال دراسة اللغات والطرق التي يستخدمها الناس للتواصل، يمكن لعلماء الأنثروبولوجيا كشف العوامل التي تشكل الهويات الثقافية وتؤثر على التفاعل الاجتماعي.

بناء على ما سبق يُعد مفهوم المعنى في الفلسفة والأنثروبولوجيا أداة أساسية لفهم ليس فقط كيفية تواصل الناس وفهمهم للعالم، بل أيضًا كيفية بناء الهوية الفردية والجماعية، فهو يوفر إطارًا لفهم عميق للوجود البشري وتفسير التجارب الإنسانية من خلال العدسات المتنوعة للغة، الثقافة، والقيم. ومن خلال الجمع بين الرؤى الفلسفية والأنثروبولوجية يمكننا الوصول إلى فهم شامل ومعمق للمعاني التي تشكل حياتنا وتجاربنا اليومية.

إن التفكير في وجودنا في العالم هو جزء من طريقتنا في الوجود به، كذلك إيضاح معنى الوجود في ذاته يتضمن معانٍ أخرى ينبغي إدراكها وتحديدها[5]، على هذا الأساس كان سؤال المعنى من بين القضايا التي شغلت الفلاسفة كل من منطلقه وفلسفته الخاصة، ولعلّ سؤال المعنى والتفكير فيه يقودنا إلى طرح سؤال ما معنى الحياة؟ أو هل للحياة معنى؟ ومن خلال إدراك موضوعية هذه الأسئلة وواقعيتها يكتشف للإنسان حقيقة وجوده العاري في هذا العالم، وينسف معنى كل شيء، ويدفع به لإعادة تشكيل أسئلة المعنى من جديد أو الهروب.

ذهب فتغنشتاين إلى اعتبار أن العالم ليس المجموع الكلي للأشياء بل للحقائق (الوقائع). وفي الجو الفكري الراهن فإن المرء ليشعر أن العالم ليس سوى المجموع الكلي للمعاني. كل شيء هو معنى والمعنى هو كل شيء. وأي شيء يكون إنما يكون عبر المعنى الذي يعطى له[6]، ما يجعل من عملية فهم الإنسان وعوالمه المختلفة تبدو مهمة مستحيلة مالم يتحقق على الأقل فهمًا أوليًا أو نهائيًا لقضايا (المعنى).

إن توجه الفعل الإنساني باتجاه المعنى في الحياة هو ليس احتمالاً قائمًا بالنسبة لنا نحن البشر فحسب، بل هو جزء أساسي وجوهري من وجودنا ومما نحن عليه. وعلى هذا الأساس فالبحث في سؤال المعنى هو فعلٌ أصيل، ويمكن أن يفتح آفاقًا واسعة للمعرفة التي تفكر في فهم الإنسان المعاصر والكشف عن طبيعته وموقفه من العالم[7]، وكذلك يمنح هذا السؤال فهما معمقا للإنسان،

---

5 سارتر، جان بول: الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (بيروت- دار الآداب)، 1966، ص 41- -

6 فتجنشتين، لودفيج: بحوث فلسفية، ت: د. عزمي إسلام، (الكويت)، 1990، ص 42.

7" سؤال المعنى" من الفلسفة الى الأنثروبولوجيا – د. علاء جواد كاظم.

حتى يكون عارفا بما هو عليه في هذا العالم، فلا يجوز من منظوري الشخصي أن يكون الشخص مقتنعا بفكرة أن للحياة معنى، والواقع يثبت عكس ذلك، ولأن الوهم مريح للبعض، كان لابد لنا أن نضع هذا التساؤل وباقي التساؤلات المتفرعة عن السؤال الإشكالي من أولوياتنا، حتى وإن كانت الإجابات مقلقة وغير مرضية، لكن تبقى أفضل من الأوهام البشرية التي لا أساس له من الصحة، فالبشر هم تلك المخلوقات التي ترى أن الوجود ككل وليس في مناحٍ معينة منه يعاني من (مشكلة معنى)، ولذا يتعاطى- هؤلاء البشر- مع وضعهم الخاص على أنه سؤال أو ورطة أو مصدر للقلق أو منبع للأمل أو عبء أو هبة أو خوف أو سخف وليس هذا في أقله لأنهم كائنات مدركة؛ بل لأنهم الكائنات الوحيدة التي تحيا أبدًا في ظل الموت [8].

البشر هم الكائنات الوحيدة التي تعي أن وجودها محدودٌ ومنتهٍ. ( ويجب أن نلاحظ هنا أن مقولة هيدجر الأخيرة هي بالأصل مقولة نيتشويه) وهذا مصدر الألم: تنجم "إشكالية المعنى" في الفلسفة الألمانية وبالتحديد عند فريدريك نيتشه[9]، من أن البشر مدركين لوجودهم الفاني، وهم مدركين هذه الحقيقة؛ لأنهم يمتلكون اللغة، ولأن قدرتهم على الترميز تمنحهم قدرة من نوع خاص على تشييئ وجودهم الذاتي، وبعبارة أخرى: إن اللغة والرموز تمكننا ليس من التحكم بأنفسنا فحسب، وإنما من فهم وضعنا ككل، إننا نعيش بالإشارات والرموز التي تجلب معها المقدرة على التجريد، بهذا التجريد أصبح بوسعنا أن نفصل أنفسنا عن سياقاتنا، ونحررها من سجن حواسنا ونتأمل الشرط والظرف الإنسانيين كما هما[10].

بعد نيتشه ومنه ربما وصلت إشكاليه (المعنى) والأفكار الكبرى عنه إلى الفلسفة الفرنسية، وتحديداً الى (سارتر: الذي تعمق بدراسة العقل الألماني) في تأكيده المفرط على أن حالة القلق الأنطولوجي الذي يصاحب الوجود البشري ويرتهن إليه، يتشكل من (الأنا) الذي بواسطته تأتي المعاني إلى الأشياء، فيقول:" أجد نفسي في عالم ذي معنى يعكس عليّ معانٍ لم أضعها[11] يعتبر سارتر "القلق الوجودي" الذي ينبثق عن فوضى المعاني سمة تميز الشرط الإنساني، إنه نوع من ذلك الإحساس بأن واحدنا مخلوق عديم الجدوى وفائض. هذه الفكرة تتماهى مع المشاعر التي

---

[8] هيدجر ، مارتن : الكينونة والزمان ، ترجمة د. فتحي المسكيني ، ( بيروت- دار الكتاب الجديد المتحدة ) ، 2012.

[9] فريدريش فيلهيلم نيتشه، فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية .كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث.

[10] سؤال المعنى" من الفلسفة الى الأنثروبولوجيا – د. علاء جواد كاظم.

[11] سارتر، جان بول: الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (بيروت- دار الآداب)، 1966، ص808.

تخبرنا بين الفينة والأخرى أن الوجود الإنســـاني هو وجودٌ طارئٌ يفتقر إلى أســـاس أو هدف أو توجه أو ضرورة أو (معنى) في التعبير الأخير.

هكذا كانت الأمور تظهر واضـحة بالنسـبة للفلسـفة الألمانية والفرنسـية أيضًـا، ولعل مصـدر الفلسـفة الألمانية والفرنسـية كان بالدرجة الأولى الفيلسـوف العظيم إيمانويل كانط، الذي كتب قبل 250 عام سـنة (1770): العالم ليس شـيئًا حقيقيًا أو موضـوعيًا، بل هو شـيء ذاتي ومثالي، وإن العقل موجه إلى التنسيق بين مجموع ما يأتي من الخارج عن طريق الحواس، أو لنقبل إذًا بفكرته: إن إدراكنا (مصـــفاة) للحقيقة وإن رؤيتنا هي في أحســـن حالاتها مشـــوهة[12] الإدراك هنا يعني التصـــفية، والإدراك على حد تعبير هوســـرل هو إعطاء دلالة للأشـــياء، إعطاءها معنى، شـــكلًا خاصًـــا. والحق أقول: يتيح لنا هذا الأمر أن نقتفي أثر كانط في أعمال هوســـرل في اســـتنتاجه التالي:" لن يكون للعالم أي معنى بدون (هذا التشـــكيل) إنه اللقاء بين التفكير والعالم الذي يعطي معاني للأشياء، الإنسان منفتح على العالم وضمن هذه العلاقة يتشكّل المعنى[13]

بعد اللقاء العاصـف بين سـارتر والأنثروبولوجي كلود ليفي شـتراوس انتقلت عدوى أسـئلة المعنى إلى الأنثروبولوجيا، حتى كتب الأنثروبولوجي الأميركي كيلفورد غيرتر – وهو بالطبع من أبرز المعجبين بشتراوس- قائلًا: إن سؤال المعنى هو بالضبط السؤال الانثروبولوجي العميق الذي يمكن أن يفتح آفاقا جديدة من المعرفة الأنثروبولوجية لفهم الإنسـان المعاصـر: وهو ما تمثل بشكل دقيق في تأويل غيرتز للثقافة.

ماذا يفعل الإنسـان ذو الحسـاسـية العالية[14] مع المجتمع حينما تتغير التقاليد؟ ماذا يفعل حينما تبدأ قوة التدين بالضـعف وتتزعزع القناعات التقليدية، وتفقد الإجابات الميتافيزيقية الكبرى قدرتها على الإقناع والتوجيه والتأثير؟ ماذا يفعل ذلك الإنسان؟

قدم غيرتز في تأويله الأنثروبولوجي للثقافة قائلا:

---

[12] كانط، عمانويل: نقد العقل المحض، ص788- -

[13] ادموند هوســـرل، ينظر في غراندان، جان: المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيبل، (الجزائر –منشـــورات الاختلاف)، 2007، ص66-72.

[14] يتفق الفلاسفة بشكل عام تقريبا (مع كانط) على ان هنالك مصدرين اساسيين للمعرفة: هما 1- الحساسية و2- الفهم، او التجربة وقدرتنا على التفكير في هذه التجربة، فاذا كنا عن طريق الحســـاســـية، وهي قابليتنا للتأثر بموضـــوعات المعرفة نتلقى مادة المعرفة، فاننا عن طريق الفهم الذي يمثل قدرتنا على التفكير في المعطى نقدم صـــورة للمعرفة. والحقيقة اننا نميل الى اعتبار هذين العنصـــرين الابستمولوجيين في بنية المعرفة وتشكيلها في الذهنية البشرية هما الاسس العقلية للمعنى.

يفعل كل شـــيء، قد يفقد حســـاســـيته تلك، أو يوجهها إلى غليان أيديولوجي، أو يتبنى معتقدًا مستوردًا، أو يتقوقع على نفسه، بل ربما يتعلق بشدة أقوى بالتقاليد البالية، محاولًا أن يعيد صياغة تلك التقاليد صـياغة أكثر فعالية، أو يقسـم نفسـه إلى نصـفين نصـف روحاني يعيش في الماضـي ونصف مادي يعيش في الحاضر أو يعبر عن تدينه في شكل نشاطات علمانية[15].

ولأن هذه الإجابات (افتراضـية) وذات صـيغة عامة، فهي ليسـت مفيدة لنا. الشـيء الأسـاس الذي يجب أن نفكر في تحقيقه هو معرفة الوســـائل والعمليات الاجتماعية والثقافية التي أدت الى اختيارٍ ما بعينه. وفي الغالب نتوجه، محاولين الإجابة على مثل هذه الأســـئلة الكبرى إلى العالم العياني والخصـوصـي. ويجد الأنثروبولوجي نفسـه على العكس من الفيلسـوف الذي انشـغل في تحليل ذلك النوع من الأســـئلة بدلًا من الإجابة عليها[16] متجهًا في محاولته للإجابة على مثل هذه الأسئلة الكبرى إلى تفكيك أو ربما تأويل الأنساق الثقافية في علاقتها مع التفاصيل الصغيرة للذهن البشري بحثًا عن المعنى، انطلاقاً من ثلاثة مبادئ رئيسة:

**المبدأ الأول** :يبدأ الرصـــد الأنثروبولوجي للمعنى بافتراض أن كل أفعال البشـــر وأفكارهم مهما بلغ حجم بسـاطتها أو تعقيدها متجهة بقوة نحوه هدفاً أسـاسـيًا[17]، لكن هذا ليس أبديًا أو دائمًا، فالبشـر كائنات تنشـد المعنى عندما تقف عاريةً أمام الفوضـى العارمة والعناء، بحثًا عن المغزى الذي يتلبد وراء كل هذا التهاوي لكل شـــيء في أذهانهم عن الواقع، ولا يكفي أن يتهاوى الواقع أمامهم بلا تمثل عقلي له، فتمدنا الأنثروبولوجيا بالقدرة على فهم (المعاني) والطرق التي تؤثر بها على أفعال البشـر ومقدراتهم، ولنقل إن واحدة من مهامنا الأســاســية هي أن نفســر لأنفســنا وللأخرين: كيف يبني البشـــر رؤيتهم للعالم من خلال تلك المعاني، أو كيف توظف تلك المعاني في توجيه رؤيتهم للعالم، وتأويلها لنا في البنى الوظيفية ونظام العلاقات التي تسـتند إليها المعاني، لكن يترتب علينا أن نتعامل بحذرٍ شـديد لنطال تلك الإمكانية البشـرية على إنتاج المعنى وتوظيفه وتوزيعه وتقديسـه؛ من هنا يترتب على علماء الإنسـان تعلم قراءة المعاني المَخفِيةَ واسـتخراجها، كما يترتب علينا دائماً أن ننظر إلى ما هو تحت الســطح، فالفرد ربما يغير الطريقة التي حدد بها

---

[15] غيرتز، كيلفورد : الاسلام من وجهة نظر الاناسة ، ت- ابو بكر احمد باقادر ( بيروت – دار المنتخب) ، 1993، ص16.

[16] مهمة الفيلسوف مثلما رآها فتغنشتاين ليست حل هذه الاسئلة بقدر ما هي تحليلها وتبيان أنها تنتج من خلط لعبة اللغة. وهو الشيء الذي دفع بالفيلسوف إيغلتون أن يقول في كتابه (معنى الحياة): تتملك الفلاسفة عادة مثيرة للحنق من تحليل الأسئلة بدلًا عن الاجابة عليها.

[17] يقول ماســلو: إن محاولات الانســان لفهم الحياة من حوله، وللوصـــول الى المعنى تبدأ في اللحظة التي يلبي فيها حاجاته البيولوجية والذاتية متمثلة بالشعور بالأمان.

هدفه تماماً مثلما يغير أحد المظاهر الخارجية لهدفه المعلن، ولهذا علينا فحص الوعي الكامن لهذا الفرد – اللاواعي – وما يحاول إخفاءه[18].

**المبدأ الثاني** :إن الوصول إلى معنىً ما من شأنه أن يسهم في إعادة بناء مفهوم الإنسان، ومع أنه ليس بالمهمة السهلة أبدًا، لكن العلوم الإنسانية تتحمل تنفيذ حاجتها إلى تفكيك هذا المفهوم، ولا يمكن أن تنجح في مسعاها هذا ما لم يقع على المعنى بوصفه العنصر الأساس في تشكيل الماهية والوجود الإنساني اللذان تلتف حولهما أغلب العناصر المُشكلة للكُلية البشرية. ولعلنا نعلم أن موضوع المعنى قد أعطى تلك العلوم ميزةً واستقلالًا عن العلوم الطبيعية.

**المبدأ الثالث :**المحاولات الأنثروبولوجية سواء تلك الرامية للكشف عن المعنى الكامن خلف أفعال وأقوال الأشخاص الذين نتابعهم ونرصد خطابهم الاجتماعي- على حد تعبير غيرتز- أو تلك التي تحاول بناء نظام لتحليل نمط الخطابات البشرية التي تخلد المعنى، وتبرز في إطارها البحثي المميزات الكامنة في هذه البنى التخيلية والرمزية، تؤكد لنا القوة العلمية وصلابة الملاحظات التي قدمها شتراوس والتي ترى أن خطابات البشر برمتها تُعرف بوصفها ترميمًا أو ترقيعًا من أجل بناء معنىً جديد[19].

لكن هذه المبادئ الثلاثة لا يمكن تحقيقها أنثروبولوجيًا إلا من خلال مهماتٍ ثلاثة أساسية:

**المهمة الأولى** :مراقبة أو رصد أنظمة المعنى (Meaning System) بوصفها فعاليات ذهنية تتداخل متعالقةً في صميم البنى الثقافية وآليات عملها في السياقات الاجتماعية لمجتمعٍ ما.

**المهمة الثانية :**اقتراح تحليل نقدي لأنماط التعبير الثقافي في السياق الذي من شأنه أن يمدها بمعناها النهائي، وذلك من خلال فهم طبيعة البعد الرمزي في حياة انسان تلك المجتمعات، وتحولات المعنى، وتحديات بقائه وفقًا الى طبيعة علاقته بالمجموعات الإنسانية التي ينتمي إليها في مجتمع ما، والتفاعلات بين ما هو محلي يمكن معاينته حقلياً وبشكل تجريبي وما هو شامل وعالمي.

---

[18] آدلر، الفريد: معنى الحياة، ترجمة عادل نجيب، (القاهرة- المركز القومي للترجمة)، ط/ 2، 2009، ص90.

[19] أركون، محمد: نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي، ترجمة: هاشم صالح (بيروت – دار الساقي).1997، ص 606.

**المهمة الثالثة :**التفكير في الديناميات الثقافية التي تعتري المجتمعات المختلفة في بحثها عن الدلالات وقابلية التفســـير. مع التأكيد على ظاهرة تآكل الثقافات التقاليدية في تلك المجتمعات وأثرها في تشتت أنظمة المعاني السائدة.

**لائحة المصادر والمراجع:**


1. ســـارتر، جان بول: الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (بيروت- دار الآداب)، 1966.
2. فتجنشتين، لودفيج: بحوث فلسفية، ت: د. عزمي إسلام، (الكويت)، 1990، ص 42.
3. هيدجر، مارتن: الكينونة والزمان، ترجمة د. فتحي المســـكيني، (بيروت- دار الكتاب الجديد المتحدة)، 2012.
4. كانط، عمانويل: نقد العقل المحض، ص788.
5. ادموند هوســـرل، ينظر في غراندان، جان: المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيبل، (الجزائر –منشورات الاختلاف)، 2007.
6. غيرتز، كيلفورد: الاســـلام من وجهة نظر الاناســـة، ت- ابو بكر احمد باقادر (بيروت – دار المنتخب)، 1993.
7. آدلر، الفريد: معنى الحياة، ترجمة عادل نجيب، (القاهرة- المركز القومي للترجمة)، ط/ 2، 2009.
8. أركون، محمد: نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي، ترجمة: هاشم صالح (بيروت – دار الساقي).1997.